

## مراجعة كتاب من عام الفيل إلى عام الماريكان: الذاكرة الشفوية وإشكالية التدوين التاريخي بالمغرب

Review of *From the Year of the Elephant to the Year of Lamerican: Oral Memory and the Historical Record*

المؤلف: عبد الأحد السبتي.

عنوان الكتاب: من عام الفيل إلى عام الماريكان: الذاكرة الشفوية وإشكالية التدوين التاريخي بالمغرب.

الناشر: منشورات المتوسط.

مكان النشر: إيطاليا.

سنة النشر: 2022.

عدد الصفحات: 548.

\* أستاذ بشعبة الأنثروبولوجيا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

Professor in the Department of Anthropology, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tufail University, Kenitra, Morocco.

[Email: abdelahadsebti@yahoo.fr](mailto:abdelahadsebti@yahoo.fr)

"إن الإنسانية في أثناء تقدمها لا تشبه أبداً الفرد الذي يصعد سلماً، حيث يضيف في كل حركة من حركاته خطوة جديدة لتلك التي حققها، بل تشبه لاعب الترد الذي يتوزع حظه على مجموعة من المكعبات التي يراها - كلما قام برميها - مبعثرة على السجاد، ومؤدية إلى حسابات مختلفة، فما يمكن أن نجنيه من ربح في مكعب، يمكن أن نخسره في مكعب آخر؛ فتراكم التاريخ لا يجري سوى من فترة إلى أخرى؛ أي إن الحسابات يضاف بعضها إلى بعض لكي تشكل تركيبة ملائمة"<sup>(1)</sup>.

## أولاً: مع الكتاب

يضم هذا الكتاب أربعة فصول، فضلاً عن تقديم وتبنيات تبيّن ظروف التأليف والإنتاج. نقرأ في الفصل الأول زمن الثقافة السياسية، وفي الفصل الثاني نلتقي ذاكرة الكوارث الطبيعية، وفي الفصل الثالث نواجه ذاكرة المعارك العسكرية، وفي الفصل الرابع نجد ذاكرة حقبة الحماية. وفي بداية كل فصل من الكتاب نتسلّم مفاتيح القراءة، يليه عمل تحليلي وتركيبي، ويتّهي بالائحة نصوص مختارة تحمل عناوين دالة.

منذ سنوات وأنا أتابع ما يصدره عبد الأحد السبتي، وفي المعرض الدولي للكتاب الذي نظم أخيراً في الرباط، لفت انتباهي كتاب من عام الفيل إلى عام المارikan، فاقتنيه، وشرعت في قراءته، وتابعت مختلف قراءات الأقران التي تفاعلت معه. وتبين لي أن قراءته ممكّنة من زوايا متعددة، وبخلفيات معرفية وتكوينية مختلفة؛ فهو يغطي مرحلة زمنية طويلة، تمتد من الماضي البعيد حتى الزمن الراهن، ولم يحصر الكاتب نفسه ضمن الدائرة الضيقة التي كان المؤرخ التقليدي يتحرك فيها، فالبواصلة المعرفية والمنهجية التي يستثير بها الكاتب متعددة ومتنوعة؛ بوصلة تشمل فهماً خاصاً للتاريخ لا ينضب بالضخامة بمنطق التحقيق المعهود، و تستفيد من أدبيات باقي العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى ومناهجه التي تتماس والتاريخ، وتوظفها وتستثمرها.

نحن أمام كاتب وباحث يتقن حرفته، ويشق مسالك قد تبدو غير سالكة، بل يفتح مسالك جديدة، وفي هذا الفتح يغتنى من التراث الأدبي والشعبي كما يتجسد في الأغنية والرواية والمُثل المترادفة. وفي هذا المسير يعرض الكاتب مختلف مراحل التعامل مع الوثيقة الشفوية، وهي مراحل يجدها متفاوتة، تعاني أحياناً ازدراز نخبة تتحقر الوثيقة وتقسيها، وتتّسم أحياناً أخرى، وفق وصف الكاتب، بـ "الشعبوية" ، وفيها يجري إعلاء قيمة هذه الوثيقة التي تتكلّم بلسان الفنات المغمورة، وفي حالة ثالثة يبيّن كيفية التعامل مع الثقافة الشفوية في علاقتها مع المجتمع والسلطة والمكتوب (ص 20-21). وفي هذا كله، لا ينخاضي عن القاشات التي تناولت علاقة الشفوي بالمكتوب (ص 21). ويتّهي إلى بعض الاستنتاجات من قبيل: إن الثقافة المغربية التقليدية ليست ثقافة شفوية بالكامل، بل هي مزيج من الشفوي والمكتوب، مع العلم أن الثقافة الشفوية تتّجسد من خلال المعيش، بينما تتّسم الثقافة المكتوبة بطابع معياري أساسه التمييز الصنمي بين ما يُقال وما يُمارس وما يُكتب. وإذا كانت الممارسة الشفوية تهيّمن على مستوى المجال الاجتماعي كما يؤكد الكاتب، فهي بذلك تعكس مجمل التفاعلات المتعددة بين الشفوي والمكتوب (ص 20-21).

واجهتني في قراءة هذا الكتاب مجموعة من الأسئلة، من قبيل: ما الذي يشغل بال الكاتب وهو يشيد هذا الآخر؟ ونستعمل هنا الكلمة تشيد، وكلمة يشغل، وقد نعوض الثانية بالتور والقلق، لأنني لاحظتّهما في مجمل صفحات الكتاب، فمعظم الكتابات الجيدة ما هي إلا نتاج مخاض يعيشها الكاتب، ويلمسه القارئ بين ثنيا الكتاب. وقد لمسنا بالفعل هذا الأمر في أكثر من لحظة؛ فالكتاب ليس عرضاً وليس تجميئاً لنصوص وأحداث ووقائع تهم المجتمع والقبيلة والسلطة والتاريخ، كما يمكن البعض أن يعتقد، بقدر ما هو سعي للإجابة عن إشكال مرتبط بموضوعة دقيقة جداً، هي موضوعة الزمن. أما عملية التشيد التي أشرت إليها، فالملصود منها أن

1 C.L. Strauss, *Anthropologie structurale deux* (Paris: Plon, 1973), pp. 391, 398.

الموضوعة التي يشتغل عليها الكاتب، والتي تشغله، ليست أمراً معطى وجاهراً كما أسلفت، بل مشيدة ومبنيّة، وهنا يحضرني النموذج المثالي عند ماكس فيبر<sup>(2)</sup>.

فكيف نتمثل الزمن؟ وهل تشكّل لنا عبر مسيرتنا التاريخية تصوّر معين للزمن يوجهنا ونخضع لقوانينه؟ إن كان الأمر كذلك، فما هو هذا التصوّر؟ هل لا نزال نخضع لتمثّلات ونجترّ عبر سيرورتنا التاريخية تمثّلات وصور تستمد قوتها وسلطتها أحياً من وقائع وأحداث طبيعية وسياسية معيشة، وسنجدها أحياً أخرى في تخيلات ثقافية ودينية؟ وما دام الأمر يتعلق بحافة المؤرخ، فكيف تعامل المؤرخ خلال هذه السيرورة الممتدة مع موضوعة الزمن؟ وهل استطاع أن يتحرر فعلاً من هذه الحمولة؟ وهل لديه القدرة على التحرر وابتكر نماذج تحليلية ومفاهيم مجردة تجعله على مسافة مما يدرسه؟ لعل مجموع هذه الأسئلة التي فكّتها هي ما يجمعه الكاتب في العبارة الآتية: "الأمر يتعلق في تجربتنا الجديدة بدراسة تعامل المجتمع والثقافة مع أسئلة الزمن" (ص 28).

يبدو أن الزمن هو بوصلة هذا الكتاب، وحين ينقب الكاتب عن الزمن، لا ينقب عنه في حقبة خاصة ومحدودة، بل ينقب عنه في ديمومته؛ فيبدأ من التاريخ القديم، ويطل على الزمن الراهن، ينقب في متون متعددة، رسمية وغير رسمية، كتابية وشفوية، فردية وجماعية. وعندما يفعل هذا كله، فهو يسعى لمحاصرة الزمن وعزله بالوصف والتدقيق والتفسير، ويعيد تجميع ذلك وربطه بالإشكال العام الذي يوجهه، فهو بكلمة واحدة يحاصر الزمن، ويبداً في مسأله واستنطاقه في مختلف تجلياته، وخلال عمليات الاستنطاق هذه، يقرأ النصوص والمتون، ويستمع إلى النصوص والمتون المختلفة، ويحسن الإنصات إليها، ويستشهد بها. وفي استنطاقه يستحضر شهوداً ويستمع إليهم، ويسجل شذرات من شهاداتهم، وهنا يصير الزمن محلاً<sup>(3)</sup> Analyseur، يقرأ من خلاله الضواهر والأحداث في شموليتها الفردية والجماعية، ويصير البحث في الزمن مدخلاً لإعادة قراءة التاريخ، وبذلك يصير الكتاب تعبيراً عن "مجمل تاريخ المغرب". أقول هذا لأن الكاتب رغم تبعه خيوط الزمن، وسعيه لتحريرها مما علقت به من ظواهر وأحداث، فهو لا يقف عند ذلك، بل يحيط بالظاهرة والحدث في شموليتها وأصافاً ومقارناً ومستنطجاً. وبذلك تكون أمام معظم نتائج الأبحاث الكثيرة التي راكمها الأستاذ عبد الأحد السبتي.

## ثانياً: من توظيف النصوص إلى البحث عن دوافع جديدة

تعددت مصادر تحصيل المادة المعرفية وطرائقها التي استند إليها الكاتب في عمله (أصدقاء، باحثون، مناطق متعددة، أرشيف بعض المؤسسات). كما اشتغل على فترة طويلة ترصد الأعوام في المصادر التاريخية (بداية العصر الإسلامي وبداية القرن العشرين) (ص 18-25). لم يكن هذا الاختيار سهلاً، وهو الذي يقرّ بمحدودية المتن الذي تكون لديه انطلاقاً من تراث الكتابة التاريخية. عندما يعود إلى النصوص، يعود إلى الروايات، وعندما يعود إليها، يبحث في خلفياتها، فيجد أن الروايات تختلف كثيراً، وتتعارض في بعض الحالات بسبب انتماء المؤرخين إلى خلفيات مختلفة (ص 232).

ماذا يعني الاشتغال بالنصوص؟ حضور النصوص في عمل باحث معناه أن الكاتب يستند فيما يكتبه إلى مراجع وأطر معرفية تمنحه هوية الانتماء إلى مجاله أولاً، وتدخله في حوار مع معاصريه أو سابقيه، وثانياً عندما يشهر الكاتب النصوص التي تؤطر عمله وتغطيه، يكون واضحاً مع القارئ المفترض. إن طريقة السبتي في الكتابة، التي سماها البعض "كتابة بوساطة النصوص"، و"إعطاء الكلمة للنصوص"، تحضر هنا بوصفها شاهداً أو شهوداً من دون منحها الثقة الكاملة، ولاحظ آخرون أنه أسلوب يتغذى

2 Max Weber, *Essais sur la théorie de la science*, introduits par Julien Freund (Paris: Plon, 1965).

3 René Lourau, *L'analyse institutionnelle* (Paris: Éditions de minuit, 1970), p. 281.

من اللغة السينمائية ... إلخ (ص 27)، يقول: "وجدنا أنفسنا في البداية أمام خليط غير معهود من المصادر، من كتب الأخبار وتاريخ البلدان والترجمات والأيام والتفسير والسيرة النبوية والأدب والألواء والجغرافيا والعجائب. الواقع أننا اضطررنا، في بعض الأحيان، لقراءة النصوص بشكل مفصل وعمق، وفي أحيان أخرى، وجدنا ضالتنا في التقاط شذرات تفي بالمقصود" (ص 33). إن إظهار هذه النصوص هو بمنزلة تعاقد بيداغوجي وأخلاقي بين الكاتب والقارئ المفترض، وكان لسان حاله يقول: هذه هي مرجعياتي وهذه هي إحالاتي، وهذا هو فهمي، ولك أيها القارئ الحق في العودة إلى قراءتها. ما يميز طريقة في الاستعمال على النص هو جمعه بين التوثيق والاستشكال، واقتراح تأويلات معينة من دون ادعاء استنفاد مضمون النصوص أو الشذرات المتناثة (ص 27، 46). ويُظهر الاعتماد على النصوص الاختلاف في مستويات السرد وتصور المؤرخين للحدث، فضلاً عن اشتغاله على النصوص التي يفكر ويحاور من خلالها، فهو يستمر حوامل جديدة لا تنتمي بالضرورة إلى الكتابة التاريخية ويوظفها، ويجدها مساهمة في نقل الذاكرة من الشفوي إلى المكتوب.

### ثالثاً: السبتي يعيد قراءة التاريخ من خلال مفهوم الزمن

يقتضي النموذج الذي يقدمه عبد الأحد السبتي تجاوز مفهوم وحدة الزمن وتشييد تراتب مفهومي للأشياء التي تعبّر عنه؛ إذ يمكن لهذه الظواهر المتكررة والمتتشابكة أن تُعرض على نحو واضح ودقيق. ومن خلال بحثه عن التماضيات، ينتقي مادته. وبذلك فهو يعتمد بالضرورة على مفهوم الإهمال أو الترك لعدد كبير من المعطيات الإمبريقية؛ فيهمل جميع تلك العناصر التي لا ترتبط بالمشكل أو المشاكل التي لا يهتم بها الدارس، وهو إهمال مشروع عملياً. وتأتي مشروعية ذلك من المصادرة الأولى لتعريف العلم، التي تؤكد أن العلم لا يقدم المعرفة ككل أو بالكليات، بل يقدم فقط الجوانب التي تهتم بالتماثلات والانتظامات، وهي الأقرب إلى لغة الاحتمالات.

نحن هنا أمام مسألة منهجه. والمنهج هو مجموع قواعد وإجراءات وتدابير منطقية ومعيارية. وبذلك تكون النماذج المشيدة مظهراً من مظاهر المنهجية العلمية، وتتميز بمنطق خاص وقواعد معيارية خاصة بها، ابتداء من اللحظة التي يمكن أن تقدم فيها تعريفات أو تحديدات للموضوعات التي تدرسها حتى تبلغ آخر مظاهر التنظير والتفسير والضبط. وانطلاقاً من هذا، يمكن تعريف النموذج المشيد كما يلي: انتقاء وتجريد وتركيب، وفي بعض الحالات تضخيم مقصود ومنظم لمجموعة من المقاييس التي تتميز بكونها ذات أصل إمبريقي. وتقوم هذه المقاييس بوظيفة المقارنة بين بعض الحالات الإمبريقية.

انطلاقاً من هذا التعريف المبدئي يمكن القول إن جميع النماذج مشيدة، وإن العالم يشيد الوحدات التي ينطلق منها في دراسته. بناءً عليه، فإن الأبحاث التي راكمها الكاتب ساعده في تشييد نماذج تحليلية، فهو يربط بين "مسألة الحدث ومسألة العلاقة بين الذاكرة الشفوية وذاكرة الثقافة المكتوبة" (ص 19). ولبلوغ هذا النموذج، نجده يبحث في "بعض جوانب موقع الحدث ودلائله ومختلف تجلياته بين الذاكرة الشفوية والكتابية التاريخية" (ص 20-21)، فنجده يبدأ بالبحث من خلال التوثيق بواسطة الحدث لتسمية العام، وهي فكرة اعترضتها صعوبات، لكون العام الواحد يحمل أكثر من اسم (يحيل إلى حدث أو أكثر)، كما أن الاسم نفسه يطلق على أكثر من حدث، بل إن التسمية تهم منطقه أو أكثر. ووجد أن كلمة عام لا تعني السنة الواحدة، بل حقبة يصعب أحياناً تحديدها بدقة (ص 23). وفي هذا النبض، يسائل الكاتب المعرفة التاريخية، فيقف مثلاً عند مثال الحدث، فيجد أن "العامة" تؤرخ بالحدث، حتى إن كانت المصادر تشير أحياناً إلى أن السلطان هو الذي يطلق التسمية على العام نسبة إلى حدث بارز (ص 24).

وبالعودة إلى النصوص، وجد أن تسمية الأعوام ظاهرة غير منتظمة، أي إن هناك سنوات وقعت فيها أحداث بارزة وسنوات لم تعرف أحداثاً بهذا المستوى تركت بصمات في الذاكرة الجماعية، أو تترك البصمة من دون أن نجد صداتها في ذاكرة التدوين التاريخي. وبفضل بعض الدراسات الإثنوغرافية، تبيّن للكاتب أن بعض المجتمعات تعودت على إطلاق اسم أو أكثر على الأعوام كلها، وهو ما يُنتج كرونولوجيا حقيقة، تقوم على الذاكرة الشفوية، وتستمر أحياناً حتى القرن العشرين (ص 24). إن هذه النماذج في التحليل، قد تبدو مغيرة ويكثر استعمالها، إلا أن المؤرخ اليقظ ينبهنا إلى ضرورة "الحذر في التعامل مع نماذج معينة"، يقول: "وحين نتأمل في هذه النماذج، فإننا نجد صعوبة في فهم مضمونها" (ص 24).

إن الاستغلال على موضوعة الزمن، تعود بالمؤرخ إلى مسألة مجاله المعرفي الخاص الذي يتصل بالتوثيق والكرونولوجيا والتحقيق، واعتماد تعدد الأزمنة عند الحاجة، تلك هي عناصر زمن المؤرخين. ويضيف إلى زمن المؤرخين بعدها آخر هو زمن المجتمعات، وهو إما زمنعيش كزمن الإنتاج والتبادل والشعائر الدينية والسلطة والعنف والاحتفال والسفر، وفي حالة تاريخ المغرب، تبرز بعض الفظواهر الخاصة مثل القافلة والموسم وركب الحاج والحركة، وإما زمن تاريفي يتصل بأشكال تمثل المجتمع للزمن والتحول (ص 28).

ولتوسيع هذا النقاش، يطرح السبتي مسألة نظام الزمن، وقد ميّز فيه مع كريستوف بومان Krzysztof Pomain بين آليات أربع، هي: الكرونوميتريا والكرونولوجيا والكرونogeografia والكرونوزوفيا. في الحالة الأولى، يتم قياس الزمن بواسطة وحدات، مثل التقويم القمري أو الشمسي. وهو ما ينتج زمناً دائرياً، وهنا تكون أيام زمن يتكون من أجزاء متاظرة، تعود باستمرار إلى أسماء الأيام والشهور نفسها، وكل وحدة هي دائرة، ثم اعتمادها في صنع الآلات لتقسيم اليوم والساعة إلى أجزاء (ص 27). أما الآلية الثانية، فتقوم على تنظيم الزمن بشكل خططي، بواسطة علامات محددة، ينتج منها الاختلاف الكيفي بين ما قبل لحظة الانطلاق وما بعدها، وفي هذا النظام ترّقم السنوات بعد يرتفع كلما ابعدنا عن سنة الانطلاق، وهذا ما يسري في حالي العام الميلادي أو الهجري (ص 29). ثم هناك نوع ثالث وهو الذي يصف مضمون الزمن إما بواسطة الإخباريات التي تنقل أخبار الحاضر، وتكلّفي بتسجيل وقائع لافتة تختلف المأثور وتثير الدهشة والاستغراب، وإما بواسطة المحكي الذي يدل على الانتقال إلى "زمن مستمر" من خلال سيرة شخصية أو تاريخ عائلة أو مؤسسة أو مجموعة تتسب إلى منطقة معينة، أو تجمع بين الهوية الإثنية والعقيدة الدينية (ص 29). أما النظام الرابع، فيشتغل بشكل ضمني أو صريح على منح دلالة معينة للأخبار، وتحكم في العلاقات بين الحاضر والماضي والمستقبل، وعلى الأخص بين الماضي البعيد والمستقبل البعيد؛ إنه نظام يقوم على مبدأ الإحاطة الشاملة بالمسارات الجماعية، ويعتمد على معارف مثل الكهانة والتنجيم، أو تبيّن الخططات التي وردت في الكتب المقدسة (ص 29).

إن مثل هذه الاختيارات النظرية والتحليلية ساهمت في هندسة كتاب يركز على أحداث مفصلية مثل (تاريخ العرب قبل الإسلام)، ومرحلة الإسلام المبكر، وإحداث "العام الهجري"، إلى غير ذلك (ص 29). وهو أيضاً كتاب لا يُستثنى الأعوام التي تؤرخ للكوارث الطبيعية (المجاعات والأوبئة)، وأعوام المعارك العسكرية (ص 30). فضلاً عن ذلك، يعرض لما يُعرف بسنوات الشدائـد (كالحرب العالمية الثانية)، بل يقف على دلالات أسماء تعودنا استخدامها من دون التفكير فيها، مثل كلمة "يـوم" التي تحيل في الأصل إلى الموقفة والشدة. وكان يُقال في الأصل "أيام ووقائع العرب"، وتنـقـوم الأـيـام بـوظـيـفـة تـمجـيدـ القـبـيلـةـ، وترتـبـطـ بـمـفـهـومـ "ـالـمنـاقـبـ"ـ الـذـيـ يـقـابـلـ مـفـهـومـ "ـالـمـثـالـ"ـ،ـ مـثـلـماـ تـقـابـلـ عـمـلـيـةـ المـفـاخـرـةـ عـمـلـيـةـ الـمـناـصـرـةـ (ـصـ 38ـ).ـ وـ فـيـ بـحـثـهـ هـذـاـ،ـ يـظـهـرـ أـنـ هـنـاكـ عـمـلـيـةـ تـكـامـلـ بـيـنـ أـدـبـ الـأـيـامـ وـأـدـبـ الـأـنـسـابـ الـذـيـ يـصـوـرـ اـسـتـمـارـيـةـ الـكـيـانـاتـ الـقـبـيلـةـ الـفـاعـلـةـ دـاـخـلـ مشـاهـدـ الـأـيـامـ وـالـأـنـسـابـ مـنـ خـلـالـ الـذـاـكـرـةـ الـشـفـوـيـةـ،ـ وـأـنـقـلـ إـلـىـ عـمـلـيـةـ التـدـوـينـ اـبـدـاءـ مـنـ الـقـرـنـ الثـانـيـ لـلـهـجـرـةـ،ـ وـحـصـلـ تـدـاـخـلـ بـيـنـ الـأـنـسـابـ وـالـأـيـامـ وـالـأـخـبـارـ (ـصـ 38ـ).

لا يقف الكاتب عند هذا الحد، بل يبحث في رمزية الأحداث والواقع، مثل الاحتفال بالمولد النبوى، وبُيُظْهَرُ اللُّغَزُ فِي قَلَةِ الْإِهْتِمَامِ بِتَارِيخِ الْوِلَادَةِ فِي الشَّفَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ (عدم اتفاق المصادر على تحديد تاريخ المولد على أساس أن هذا العيد مجرد تقليد المسيح) (ص 46). بل يتبع النبش في هذه الخطاطة الزمنية في استمراريتها، ويكشف أن اعتماد الهجرة للتاريخ، كان بمبادرة من الخليفة عمر بن الخطاب، ولم يكن هذا التزامن نتيجة للصدفة، بل جاء ضمن سلسلة من الواقع والإجراءات التي ساهمت في مأسسة الدولة الإسلامية الناشئة (ص 53)، فتم اختيار الهجرة لأن تاريخها مؤكد (ص 56). ثم ينتقل إلى التحقيق الثاني الذي يقوم على تسلسل الأعمار البشرية (ص 57-58).

نحن أمام خطاطة زمنية بخلفياتها الاجتماعية والسياسية والرمزية؛ إذ يظهر من خلال التحقيق أن الدولة الإسلامية وفَرَتْ فِي وقت قياسي "بنية زمنية جاهزة"، فبأحداث العام الهجري، دشت الأمة الإسلامية تاريخها الخاص (ص 59). فصارت لهذه الكلمة معانٌ متعددة: فهي تدل على التوقيت، والتقويم الذي يساعد في ترقيم السنوات. وعندما يبحث الكاتب في دلالتها اللغوية، يجد أنها تحيل إلى "فن التاريخ": الإعلام بالوقت. أما المعنى الاصطلاحي، فيشير إلى التعريف بالوقت الذي به تُضْبِطُ الأحوال و"موضوع التاريخ"، وهو الإنسان والزمن، والبحث عن "واقع الزمان من التعين والتقويم" (ص 60-59). إن التاريخ بالعام الهجري لم يُهِيَ التاريخ بالذاكرة ولم يقطع معه، بل ظل مستمراً (ص 60). كما استمرت التسمية بالأعوام وارتبطت بمتغيرات كالكوارث الطبيعية والأحداث العسكرية والسياسية (ص 63). يتبع التقويم الهجري إمكانية تحديد تسلسل الأحداث، لأنَّه يحدد نقطة انطلاق نظام كرونولوجي ابتداءً من حدث معين (ص 64).

يُظْهَرُ الكاتب أنَّ كُلْمَتَيْ "التقويم" أو "الروزنامة" تدلان أيضًا على نظام مكونات السنة؛ أي الفصول والشهور والأسابيع والأيام. ويضيف: وإذا كان الاستعمال المتبادل يربط التقويم الهجري بنظام الشهور العربية، فإنَّ هذا النظام عُرِفَ عند عموم العرب سلسلة من التحولات منذ ما قبل الإسلام، وهي تتصل بتارُجُحِ الممارسات بين شهور النظام القرمي وشهور النظام الشمسي.

كما ينبهنا الكاتب إلى أنَّ الشهور المتعارف عليها حاليًا ليست أقدم شهور عرْفِها العرب، فقد أوردت المصادر لواحق مغایرة، منها ما يُنْسَبُ إلى عموم "العرب"، ومنها ما يخص ثمود (ص 64). بل إنَّ نظام الشهور المعروفة حتى الوقت الراهن أُحدِثَ قبل مجيء الإسلام بمتئٍ سنة، وتحمل الأسماء معاني تنتهي إلى مجالات المناخ وأصول الطقس ونمط العيش والمقدس (ص 65). لا يقف الكاتب عند هذا الحد أيضًا، بل يذهب إلى ما وراء التسمية والبحث في شروط التسمية ودلالتها، "نظام الأشهر الحرم" (ص 66)، ويُؤكِّدُ أنَّ نظام الشهور العربية قبل التقويم الهجري لم يكن يعني وجود نظام كرونولوجي يتبع عملية ترقيم السنوات، كما أنَّ عدًّا من المؤرخين لم يتَرددوا في تحديد الأيام والشهور التي وقعت فيها أحداث عديدة تخص بِدَائِيَاتِ الإِسْلَامِ، بل حتى تاريخ الأنبياء. تتحدث المصادر العربية، إلى جانب حديثها عن الشهور العربية، عن "الشهور العجمية" (ص 66).

وفي مطاردته للزمن وتجلياته، نجد الكاتب يعود إلى العديد من الإسهامات النظرية المبنية على معطيات ميدانية، كما هو الحال في بحث بيير بورديو Pierre Bourdieu حول المجتمع الجزائري، والذي ميَّزَ فيه بين الفصول والأزمات القصوى والأزمات الانتقائية. كما تتمظَّلُ في مجال الممارسات والطقس والمعتقدات. وفي الحالة المغربية، استند إلى أبحاث علي أمهان عن قبيلة غجدامة بالأطلس الكبير، وهو الذي ميَّزَ بين ثلاثة أزمنة: زمن التقويم العام، والزمن العملي، وزمن الشهور القرمية (ص 70-77). ويلاحظ الكاتب، أنَّ أمهان يضمننا أمام مقاربة توليفية تضع الزمن في عدة مستويات؛ زمن يقر بوجود ثنائية زمنية تميَّز بين زمن ذكوري يتصل بالأنواع والأشغال الفلاحية، وزمن نسوي يتصل بنظام الشهور القرمية العربية الإسلامية وأعيادها الدينية وغير ذلك (ص 79). وينتهي إلى نفي وجود تسلسل زمني، بل يقر بوجود أزمنة تتقاطع وتترافق. وسواء تعلق الأمر بتسلسل الأعوام

أو بدوره العام الواحد، فإن هناك علاقة تداخل بين الذاكرة الشفوية والذاكرة المكتوبة، كما أن هناك تداخلاً بين المعرفة، سواءً أكانت علمية أم عملية أم غيبية (ص 82-81).

إذا عدنا إلى ذاكرة الكوارث الطبيعية، فسنجد أن الكاتب يتناولها من خلال "الأعوام"، مثل "عام الجوع" و"عام الزلزال" و"عام الخير"، من خلال تسجيل الكتابة التاريخية التقليدية لهذه الصيغة الشفوية (ص 133). ويرى أن البحث في ذاكرة الكوارث بمنزلة ورش لتحديث الكتابة التاريخية في المغرب حول المغرب (ص 133)، وينتهي إلى القول إن ظاهرة الكوارث أصبحت تشغّل بوصفها بنية مادية وتاريخية، ينطاطع فيها عدد كبير من الجوانب مثل المناخ والديموغرافي، وأشكال المعاش والشرايين الاجتماعية، والسلطة السياسية، إلى جانب مظاهر الحياة اليومية، مثل الأغذية، وموقف المغاربة تجاه المرض والموت. ويذهب أبعد من ذلك عندما يرى إمكانية إدراج الكوارث الطبيعية ضمن مفهوم "الظاهرة الاجتماعية الشاملة" (ص 134)، والتي تشمل الزلازل والصاعق والجراد والسيول والحرائق والفيضان والبراغيث، وظواهر فلكية تثير الذعر (ص 136). بل إن انتظام الجفاف والمجاعات من عوامل هشاشة النسبي الاقصادي، لأن مستوى المحاصيل كان يؤثر على نحو أساسي في الرواج التجاري وتقدّيم البوادي والمدن على حد سواء.

مرة أخرى، نؤكد أن الكاتب يتبينى استراتيجية نقدية إزاء الكتابات التاريخية، سواء تعلق الأمر بالمصادر المعتمدة في بناء المعرفة أو الأبحاث التي توظف هذه المصادر؛ إذ يقول: "حين نهتم بذاكرة الكوارث من خلال التاريخ بها في صيغة 'الأعوام' فإننا نستثمر كل التغيرات في حد ذاتها، ونمنع في مسأله لها وفك أغزارها، لأنها تعكس المنطق الذي يؤطر حديث المؤرخ التقليدي عن المجاعات والأوبئة والزلالز وغيرها. وبالتالي، ننتقل من مظاهر البنية المادية إلى جوانب من بنية التمثيلات والرموز والمخيال" (ص 138). وفي حديثه عن التاريخ، نجده يتّأرجح بين متغيرات تاريخ الدول وتاريخ الرجال (ص 139)، فالمؤرخون الذين تبّوا المنهج الحولي ربوا الأخبار على "السنين"، في حين نجد الأدب البيوغرافي قد تخلّى، تدريجياً، عن مصطلح "الطبقات" لفائدة مصطلح "الترجمم"، بل اعتمد المؤلفون ترتيب الشخصيات المترجم لها بحسب سنة الوفاة بدلاً من ترتيبها وفق أسماء الأعلام، وأصبحت الترجمة تُختزل في الوفاة، فيكون الحديث عن كتاب الوفيات (ص 139).

يكشف الكاتب أن التأليف يتّنظم داخل سلسل زمنية محكمة، وهو ما يعكس بوضوح تشيّع الأدب البيوغرافي بالهاجس الكرونولوجي الذي يُنسب عادة إلى تواريخ الدول. كما يكشف عن مبررات الاختيارات في التاريخ (ص 140)؛ التاريخ بوفيات المشاهير (سنة الفقهاء، سنة الأدباء) (ص 142)، التاريخ بالشدة والفرج [عام الفرج وعام الشدة] (ص 160). وحتى إن كانت تسمية عام الفرج ظاهرة نادرة، فإن ثنائية الشدة والفرج تتكرر عبر مرويات الشدائيد (ص 166)، عام اللوبية، عام الصابة (ص 167). كما وقف على استعمال المؤرخين لمصطلحات دأبت "العامة" على استعمالها لتسمية أعوام "الفرج" و"الخلق" و"الصابة" و"عام الخير" و"عام الجفاف" و"عام الجوع" و"عام الخبيزة" و"عام يبني" (ص 172).

وعندما يشغّل على ذاكرة المعارك العسكرية، فهو يستعمل "عام المشعلة" و"عام ظافر" (ص 224) و"سنة كروم الحاج" (ص 225).

هنا يلاحظ السبتي: "جل هذه 'الأعوام' كانت تنتهي إلى الذاكرة المحلية، وقد ورد ذكرها عند الإخباريين في شكل شذرات، لأنها كانت بمثابة حلقات داخل سلسلة الأحداث التي رافقت قيام أو سقوط دولة معينة". غير أن حاجته إلى التحليل والتأويل دعته إلى انتقاد حالات أسمهم المؤلفون في ذكر سياقاتها وحيثياتها وأطوارها، ثم توصل إلى ترتيب أعوام المعارك العسكرية وفق تحقيق يقوم على ثلات مراحل؛ في أخبار العصر الوسيط، تبرز ثلاثة معارك، وهي الزلاقة والأرك والعقاب، بين دولتي المرابطين والموحدين،

وبين ملوك مسيحيين في الأندلس. وفي العصر الحديث بربت مواجهتها، هما: بوعبة والكارا، حصلتا في ظرفية انتقال الملك من سلالة حاكمة إلى أخرى، الأولى بين دولة في طور الأفول وأخرى في طور الاستيلاء على الحكم، والثانية بين قوتين جهوتين صاعدتين، بربتا خلال تفكك الدولة المركزية" (ص 226).

من خلال التأمل في هذه المعارك، ظهر أن هذا التحقيق الثلاثي يعكس بعض جوانب التطور الذي عرفته طبيعة المواجهات والرهانات، أو نوعية الأطراف المتحاربة، والدلالات التي تظهرها الروايات المتواترة، وتكشفها روايات هامشية ويزعها التحليل التاريخي الحديث (ص 227).

وخلال مرحلة الحماية، بين أن المغرب عرف في تلك الحقبة تحولات في الممارسة الاجتماعية للزمن، ومن بين مؤشراتها ظهور "يوميات بوعياد"، وهي يوميات تسجل بالنسبة إلى كل يوم التاريخ بحسب ثلاثة تقابيم: البهري والإداري والفلحي" (ص 379). وخلال هذه المرحلة، ركز على علاقة الزمن بالذاكرة الجماعية، وسجل ظهور أشكال جديدة في التفاعل بين الذاكرة المحلية والذاكرة الوطنية، وأشكال جديدة تولت نقل الذاكرة الشفوية إلى الكتابة في غياب التدوين التاريخي التقليدي. وقد استند في حديثه عن "الأشكال الجديدة" إلى فرضية تعتبر أن ثمة منعطفاً في مستوى الذاكرة الجماعية مثنته ثلاثة أعوام "البون" و"مارikan" و"الجوع" التي تزامنت وسنوات الحرب العالمية الثانية. وقد لاحظ أن الأعوام المحلية تهيمن عليها ذاكرة الشائد المشار إليها سابقاً، مثل الوباء والجفاف والجراد والجوع، وثنائية الجفاف والغلة والوفرة، بتنوعات محلية، يصعب أحياناً تحديد معناها الدقيق على غير العارف بالتاريخ المحلي للجماعات المعنية (ص 381).

يقترن حضور السلطة الاستعمارية بأحداث معينة، أو بإجراءات اتخذتها إدارة الحماية أو القادة التابعون لها، فسكن فاس مثلاً يؤرخون بـ"عام الكيلو" الذي يسجل تغيير نظام الأوزان، و"عام تبادل الورقة" يؤرخ بتغيير نظام النقود في ذاكرة أهل الرباط، في حين يؤرخ أهل سلا "عام الجابون"، وتحفظ الذاكرة في منطقة عبدة بـ"عام العبرة" (ص 382).

يقف الكاتب، وهو يترصد تمظهرات الزمن، على نماذج محلية (ص 383)، ففي الريف مثلاً يؤرخ بعام الجراد (أسكاس ن تمورغي)، أو عام البيوش (ص 384)، أو عام الريفوبليك (زمن ممتد) (ص 386)، عام الكور (تطوان)، عام الريفي (يحدده جاك بيرك سنة 1925)، (ص 387)، عام باعلي (أسكاس ن باعلي) (ص 389)، ثم عام الخوف (ص 392). وينتهي إلى القول: لقد سجلنا أن "أعوام" الذاكرة الشفوية المحلية تؤرخ بأحداث عسكرية محلية، أو بکوارث وشائد عرفتها جل جهات المغرب خلال العقدين الأولين من الحماية (ص 394). كما احتفظت الذاكرة عبر مجموع التراب المغربي بثلاث علامات زمنية كان لها صدى على مستوى الذاكرة الوطنية، وهي على التوالي: عملية تقيين المواد الأساسية عام 1940، والإزال الأميركي عام 1942، والمجاعة الكبرى عام 1945.

يتساءل الكاتب: كيف انتقلت الكوارث التي واكبت الحرب العالمية الثانية في المغرب من الذاكرة الشفوية إلى ذاكرة التدوين؟ (ص 407). للإجابة عن هذا السؤال ينفتح الكاتب على الأعمال الروائية التي اشتغلت على جوانب تطور المجتمع المغربي في سياق "البون" والإزال الأميركي والجوع من طرف أدباء زاوجوا بين التخييل واسترجاع مشاهد عاشهوا أو استقوها من ذاكرة محيطهم العائلي (ص 410).

ويتساءل أيضاً: لماذا نعد أن "أعوام" البون ومارikan والجوع ثلث علامات تعكس الانتقال من الذاكرة المحلية إلى الذاكرة الوطنية (ص 423)؟ يبدو أن عام البون جاء بمارسات جديدة ضمن مستوى تدخل السلطات الإدارية في الحياة اليومية للساكنة، إذ وحدت السوق الوطنية بوساطة الندرة، وأحدثت سوقاً موازية بوساطة "المارشي نوار" الذي نسج شبكاته لاختراق حدود المدن والتقنيات.

وفي الوقت ذاته، عرفت دائرة الكوارث الثلاث توحيداً غير مسبوق بسبب حركة الهجرات الداخلية التي عرفها المغرب، وبسبب تأثير وسائل النقل الجديدة مثل القطار وحافلات النقل بين المدن، وكذلك تأثير وسائل الاتصال الجديدة مثل الأسطوانة والمذيع (ص 423).

تعددت تسميات الكارثة الواحدة، ولا سيما تسمية "عام الجوع"، فقد سمي بـ "عام بوهيوف" بفاس، وفي منطقة الشاوية سمي بـ "عام الهيف"، وفي قبيلي أولاد جابر وأولاد يعقوب بالجنوب الشرقي سمي بـ "عام الحريرة"، وفي الريف سمي بـ "عام بريوش"، وفي طوان سمي بـ "عام روافة" (ص 424).

تعكس ظاهرة "الأعوام" علاقة معقدة بين الذاكرة الجماعية وتاريخ الواقع؛ إذ تُستخدم "الأعوام" مبدئياً أداة كرونولوجية حين تعمد الحدث المفرد، لكنها تطلق تسميات تكرارية على الكوارث الطبيعية والمعارك العسكرية، مثل "عام الجوع" أو "عام يرني" أو "عام الهرية"، وتستعمل ذاكرة "الأعوام" في عملية تحقيب فضفاض في حالات مثل "عام السيبة" (ص 486). اعتبر الكاتب مرويات الأعوام جزءاً من التراث الشفوي، فهي جزء من الأمثال (والأمثال كما يقول: شكل من أشكال التعبير عن التجربة الجماعية). كما أن حصيلة الأعوام (هزيلة) التقاطها مختلف روافد الكتابة التاريخية التقليدية (ص 487).

لقد حاولنا من خلال هذه الورقة أن نُظهر أهم الإشكالات التي تواجه هذا الكتاب، وأهم الأسس المفاهيمية والمنهجية التي اعتمدتها الكاتب من أجل بناء نموذج تحليلي لموضوعة الزمن، وهي عملية لم تكن سهلة، نظراً إلى الحقبة التاريخية الطويلة التي غطتها الكتاب، وتتنوع الموضوعات التي تناولها كاتبه.



## المراجع

Lourau, René. *L'analyse institutionnelle*. Paris: Éditions de minuit, 1970.

Strauss, C.L. *Anthropologie structurale deux*. Paris: Plon, 1973.

Weber, Max. *Essais sur la théorie de la science*. Introduits par Julien Freund. Paris: Plon, 1965.